نشـــأة النحو

تأليف الأستاذ محمد الطنطاوى

بقلم الأســـتاذ محمود مصطفى

هذا أول كتاب من نوعه فيما أعلم ؛ إذ قد جرت العادة فى الكتب التى تؤرخ فيها العلوم والآداب ، أن يشغل الحديث فيها عن كل فن أو علم بضع صفحات يلم فيها المؤلف بمجمل من تاريخ ذلك العلم أو الفن . فأما أن يملأ الحديث عن علم واحد كتاباً تصل صفحاته إلى الخمسين بعد المائة من القطع الكبير فذلك ما لم نعهده قبل أن يخرج إلينا الأستاذ الجليل والعالم المفضال صاحب الفضيلة الشيخ محمد الطنطاوى المدرس بكلية اللغة العربية كتابه « نشأة النحو »

والحق أن هذه التسمية « نشأة النحو » تسمية يتجلى فيها التواضع العلمى تمام التجلى فالكتاب ليس عن نشأة النحو فحسب ولكنه يتناول نشأته ودروجه ثم شبابه وكهولته ثم شيخوخته وهرمه وليس ذلك فى قطر واحد من الأقطار العربية ، بل هو حديث مفصل من كل هذه الأطوار فى كل قطر من الأقطار . حديث يتناول المذاهب واختلافها وأسباب نشوئها وعلل تمايزها وينوه بالأعلام من رجالها وما كان لهم من آثار بارزة فى خدمة علمهم وتجلية غامضه وتسهيل سبله

قد يتناول الباحث فى تاريخ العلوم والآداب دراسة علم أو فن لم يدرسه دراسة وافية مستوعبة ولم يكن له به صلة وثيقة، فيكون همه جمع ما كتبه الكاتبون من ذلك العلم وترتيب أقوالهم بما يملك من قدرة على التقسيم والتبويب ، فيخرج عمله معجباً من يعالم عليه ، مرضياً من يريد الوقوف على تدرج هـذا العلم وتسلسل أطواره ، ولكنه مع ذلك لا يستطيع أن يكشف عن أسرار العلم كما يكشف عنها عالم مارسه ودرس كتبه وألم بمسائله وأطال مناقشتها ووازن بين أقوال العلماء فيها ، وتكونت له ملكة الحكم وبيان الصحيح الجيد من الزائف البهرج . وذلك شأن مؤلفنا الفاضل فى هذا الكتاب . فهو إذا وازن بين قولين رأيت الحجة فى قوله واضحة الحجة ، والبرهان يدعم البرهان؛ كالبنيان يشد البنيان . وكذلك من فضل العالم الذى يؤلف لعلمه أن ترى أثر الاجتهاد ظاهراً فى بحثه فهو يضيف إلى أقوال السابقين ما يصبح مادة جديدة فى البحث، والفضل فى ذلك راجع إلى هداية الفكر الصائب والذهن الواعى لمسائل العلم ومباحثه المتشعبة

وفى هذا الكتاب نجد الأستاذ الطنطاوى ظاهراً موازياً تمام الموازاة لآثار السلف الذين نذكر لهم صنيعهم بالشكر ، فقد ذكر المؤلف حفظه الله كثيراً من مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين وتلك مسألة ألف القدماء فيها الكتب وأحصوا فيها كل ما كان من ذلك بين أهل المذهبين ، ولكن المؤلف حفظه الله لم يشأ أن يكون ناقلاً فحسب بل إنه وازن بين المذهبين وكانت له بينهما جولة رجح فيها بحق مذهب البصريين على الكوفيين داعماً قوله بالشواهد الصحيحة والعلل المعقولة فكان الناقد الألمعى والحكم الرضى . كذلك نراه يعرض لأثر البغداديين أو الغاربة فى علم النحو فيجمع من آرائهم التى اشتغلوا بها، ما تفرق فى ثنايا الكتب مما لم يعن أحد قبل الشيخ الطنطاوى بجمعه وضم شتاته ، فهذا مظهر من مظاهر الاستقلال فى التأليف نذكره لصديقنا بالإعجاب الفائق

وبعد فكتاب (نشأة النحو) سجل واف لتاريخ هذا العلم منذ فكر فى وضعه الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه إلى أن انتهى المتأخرون من تنسيقه وتبويبه فلم يتركوا بعدهم مجالاً لقائل إلا أن يكون فى مثل فضل الأستاذ الطنطاوى الذى أرخ لدولة النحو من بدئها إلى ختامها تاريخاً لم يغادر من أمرها صغيراً ولا كبيراً إلا أحصاه ، فالله يتولاه ويمنحه على هذا الجهد المشكور أتم رضاه وأجزل نعماه .

محمود مصطفى

المدرس فى كلية اللغة العربية

﴿ طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبتديان — عابدين ﴾